الباب الثالث

بعض الأصول الخاصة لسيكلوچية أدلر

تمهيد

من العسير أن يخرج المرء من مؤلفات أدلر ، على تعددها وكثرة الإطناب والاستطراد فيها ، برأى شامل عن مسائل النفس كلها أو بقول حاسم عن الجوانب الهامة التى درج أصحاب السيكلوچية الحديثة على التعرض لها .

فإما أن يعرض صاحبنا لإحدى المسائل الكبيرة ، كالعلاقة بين البدن والعقل فى صفحات محدودة[1] . يعرض فيها المسألة عرضاً ، لا نستطيع أن نخرج منه بشىء إلا بشرحها — لا حلها — على ضوء مذهبه . وإما أن يعرض لأخرى فى موقعين[2] يقول فى أحدهما ما يناقض الآخر مثل حديثه عن النزوع وقوله مرة — كما رأينا — إنه الرغبة فى التعويض عن أحاسيس القصور ، ثم قوله مرة أخرى إنه الرغبة فى الاتساق مع الجماعة والاستجابة لمطالبها .

أو هو يتحدث حيناً عن الذاكرة أو التخيل أو الإدراك حديثاً موجزاً أشد الإيجاز يخرج فيه عن المصطلحات المألوفة ، ولا نخرج نحن منه — بعد اعتصارنا لتلك المصطلحات حتى تتناسق مع المعنى — إلا بأنه يود أن يرجع كل وظائف النفس إلى واحد من الأصول العامة لمذهبه التى تحدثنا عنها فى الباب السابق أو إليها جميعاً .

أو هو يخرج على كل المألوف المتعارف فى علم النفس اصطلاحاً

---

(١) الفصل الثانى من كتابه : What Life Should Mean to You

(٢) سبق أن أشرنا إلى ذلك فى صفحتى ٦٨ ، ١٠٧ .

ومعنى ، فيتحدث[١] عن الوجدانات والانفعالات حديثاً عامياً مشبعاً برأيه المعروف فى القصور وما يصدر عنه ، ثم يقسمها إلى : الوجدانات الفاصلة[٢] وهى الغضب ، والحزن وسوء استعمال الانفعال ، والتقزز ، والخوف ، والقلق . والوجدانات الواصلة[٣] وهى السرور ، والتعاطف ، والتواضع ، فيخلط بذلك بين الانفعالات الأولية وبين الانفعالات الثانوية أو بينها وبين أشكال الخلق مما يؤدى بنا — إذا رغبنا فى تفصيله — إلى استطراد بعيد وإطناب طويل يتطلب بدل الباب أبوابا وفصولا .

ولهذا رأينا أن نقصر الحديث فى هذا الباب على ما يمس سيكلوجية أدلر فى الصميم ، وعلى ما يتصل برأيه فى المسائل الكبرى للمدرسة التحليلية وهما مسألتا اللاشعور والأحلام .

---

(١) الفصل الخامس من الكتاب الثانى ، فى كتابه : Understanding Human Nature.

(٢) Disjunctive Affects.

(٣) Conjunctive Affects

الفصل الأول

اللاشعـــور

ينقب المرء فى مؤلفات أدلر ، ويذرعها هى ومؤلفات أتباعه جيئة ، ثم يذرعها ذهوباً ، كى يقع على فصل واحد يغنيه فى الحديث عن اللاشعور ، أو عن جانب من فصل يستطيع أن يخرج منه برأى حاسم عما يقولون فيه — واللاشعور عماد المدرسة التحليلية كلها — فلا يخلص من هذا كله ، إلا بفقرة هنا ، وسطور عارضة هناك ، يأتى ذكر اللاشعور فيها ذكراً لا توقير فيه ولا غناء منه . فيخرج بعد هذا ، بأن أدلر وأصحابه قد أغفلوا هذا العماد الكبير من عمد السيكلوچية الحديثة أو أنهم كادوا يهدمونه .

يقول أدلر إن « معرفة إن كان أساس القصور فى نفسه أمراً شعورياً أو لاشعورياً ليس لها إلا أهمية ثانوية »[1] فهو يرى أن الزهو ، كما يقول نيتشه ، يبلغ بالنفس حداً تخضع له الذاكرة ، فإذا كان المرء يذكر أول أمره ما هو مصاب به من قصور فإن العزة تشيع فى نفسه وتغلب عليه الرغبة فى السيطرة فيذهب عنه ذكر ذلك القصور ؛ ولا يبقى ماثلا فى عقله ، موجهاً إرادته ، سوى الرغبة فى القوة والميل إلى الكفاح فى سبيل التعويض عن القصور الذى أنسيه من قبل .

ثم إن أدلر لا يوافق على المقابلة بين الشعور واللاشعور ، كما يدعو إليها فرويد ، ويقول إنه حيثما وجدنا تلك المقابلات لزم علينا أن نستنتج بعد صاحبها عن التفكير العلمى المصيب : إذ أننا كثيراً ما نرى فى تفكير الشعوب البدائية وقدامى الفلاسفة تلك الرغبة القوية فى المقابلة بين الأشياء

(١) Adler : *Le Tempérament Nerveux*, p. 70.

وبين الأفكار ، وفى اعتبار بعضها مناقضاً بعضها الآخر ، كما تظهر تلك النزعة فى تفكير الأطفال والعصابيين ظهوراً واضحاً جلياً . «وكثيراً ما يعتقد الناس أن اليسار واليمين متناقضان ، وأن الرجل والمرأة ، والحار والبارد ، والخفيف والثقيل ، والقوى والضعيف أمور متناقضة مع أنها فى الواقع ليست كذلك من الناحية العلمية ، بل هى ضروب من الاختلاف وهى درجات من سلم واحد مرتبة تبعاً لقربها أو بعدها من أحد المثل الموهومة»[١] هكذا الشعور واللاشعور وحدة واحدة ، لا فرق بين محتوى كل منهما ولا نشاطه إلا فى الدرجة لا فى النوع . فلا يشمل الشعور أموراً لا يشملها اللاشعور . ولا يختبئ فى أعماق هذا من الرغبات أو الميول ما ينعدم وجوده فى الشعور ، بل هما من النفس جانب واحد متكامل .

ويذهب أدلر أبعد من هذا فيرى تقسيم الناس إلى طرازين : أولئك الذين يعرفون قدراً أكثر من المتوسط عن حياتهم اللاشعورية[٢] وأولئك الذين يعرفون قدراً أقل منه . أى أن نقسمهم تبعاً لمدى نطاق الشعور عندهم فنرى غالباً أن الفرد من الطراز الأخير ، يتركز عل نطاق محدود من النشاط بينما يدور نشاط الأفراد الذين هم من الطراز الأول على عالم متعدد النواحى ، فهم يهتمون بغيرهم من الناس ويفكرون فى أحداث الدنيا وأوضاعها ، أما أولئك الذين ينقبضون على أنفسهم ولا يدركون من العوامل التى توجه سلوكهم إلا ما يدور فى شعورهم فيرضون من الحياة بأضيق جانب منها لأنهم أغراب عن أوضاعها الصحيحة يخشون ضياع مكانتهم لو تفتحت عيونهم على غير ما يعرفون ، على نقيض أولئك الذين يتسع نطاق إدراكهم حتى يشمل العوامل اللاشعورية التى تدفعهم إلى ما يعملون : فهم يندفعون فى الدنيا يحيون فيها تبعاً لما تتطلبه منهم ويؤدون لها ما تتقاضاهم إياه ، حتى يفيدوا

---

(١) Adler : *What Life Shouls Mean to You*, p. 95.

(٢) والتناقض فى ذلك القول واضح إذ لو عرف اللاشعور لما أصبح كذلك .

منها قدر ما يؤدون لها بل أكثر منه[١] .

الناس إذن ، كما يقول أدلر ، طرازان : طائفة منهم تحيا على الغالب حياة شعورية يعرضون لمشاكل الحياة مكشوفى الأبصار ، لا غماء على عيونهم ، يعالجون الأمور علاجاً موضوعياً ، وطائفة أخرى لها عن الحياة أحكام سابقة ، يصطنعونها قبل أن يعرضوا لمسائلها عن كثب ، فلا يرون منها إلا شطراً يسيراً ، لهذا كان سلوك هذه الطائفة وحديثها صادراً على الدوام عن الدوافع اللاشعورية التى تسيطر على نفوسهم . من ذلك أنه قد يتعذر العيش على اثنين أحدهما مع الآخر ، لأن واحداً منهما اتخذ مع الغير موقف العداء دون أن يشعر ، والتزم النزاع منهجاً له فى حياته ، تحقيقاً لسطوة يود الوصول بها إلى مثله الأعلى دون أن يعرف أن رفيقه قد يكون أخيراً منه ، وأقرب إلى جادة الصواب ، لأن العوامل اللاشعورية تسيطر على نفس الأول ، وتلزمه اتخاذ ذلك الموقف العدائى طوال أيامه . فلا ينبغى أن نسترشد فى أحكامنا على سلوك الناس كافة ، بما يصدر عنهم صدوراً شعورياً فقد يكون لدقائق التفكير أو السلوك التى يقوم بها الفرد دون تفطن منه دلالة تكشف لنا عن لب سلوكه كله .

ذلك هو الرأى الأخير الذى يقول به أدلر عن أهمية اللاشعور ، وذلك هو الدور المحدود الذى يقصر به أثر اللاشعور فى الحياة النفسية على جانب من الناس فقط ، وقد كان رأيه أول الأمر[٢] أكثر وضوحاً وتحديداً من هذا ، إذ كان يقول إن المصابين بالأمراض النفسية من الناس يلجئون إلى اصطناع الحيل والأوهام للوصول إلى ما يتوقون إليه من غايات جذابة قوية ، وإن إحدى الحيل التى يلجئون إليها ، هى نقل الغاية التى يسعون إليها إلى نطاق اللاشعور حتى يلفها النسيان كلها أو جانباً منها فيختفى الهدف الموهوم عن

---

(١) Adler : *Understanding Human Nature*, pp. 97-99.

(٢) Adler : *The Theory & Practice of Individual Psychology*, pp. 228, 229.

إدراك المرء اختفاء قد يطول أمده أو يقصر.

وأكد أدلر أن تلك الغاية الموهومة ، وما يتصل بها من خبرات أو أخيلة قادرة على أن تنسرب إلى الشعور كى تعينه ، لا كى تقف عقبة فى سبيل حصول المرء على مثله الأعلى للشخصية . أما المقابلة المألوفة بين الشعور واللاشعور وبين خصائص كل منهما . فيرى أدلر أنها ليست سوى مقابلة بين معان مجردة لا تمت إلى الواقع بصلة .

« أما الغاية النهائية وما تتحول إليه من أشكال متطرفة ، فلا بد أن تبقى فى اللاشعور ، إذا جعلت من المحال على المرء أن يسير قدماً فى السبيل العصابى الذى اتخذه فى الحياة ، تبعاً للتناقض الصارخ بين تلك الغاية وبين حقائق العالم وأوضاعه ، فإذا اتضحت ضرورة الشعور بالأمر كمنهج فى الحياة ، وكوقاية لوحدة الشخصية ومساك للمثل الأعلى للفرد ، ظهر ذلك الشعور على خير أشكاله مناسبة وشمولا . بل قد يصبح جانب من الغاية الموهومة ومن نمط الحياة العصابى أمراً شعورياً ، إذا كان فى تلك العملية ما يعزز الشعور بالشخصية . ويصدق هذا — بصفة خاصة — على الأمراض النفسية ، ومع ذلك فإذا اتضح أن الغاية العصابية قد تمحو نفسها ، إذا ناهضت الشعور الاجتماعى مناهضة مباشرة تكوّن نمط الحياة عندئذ فى اللاشعور »[1] .

وأيد أدلر رأيه هنا أيضاً بفلسفة « فيهنجر » ورأيه عن التفكير ، واستنتج منها أن الوهم الذى يهدى الحياة النفسية يتعلق باللاشعور ، وأن خروجه إلى نطاق الشعور ليس لازماً لتحقيق الغرض منه ، كما أنه قد يؤدى إلى الأذى ويسىء إلى توازن صاحبه .

كان أدلر يرى أن علاج النفس ينبغى أن يبدأ بإخراج أفكار العظمة والسيطرة إلى نطاق الشعور ، حتى يستحيل عليها بذلك أن تؤثر على حياة المرء العملية .

---

(١) Adler : Op. Cit., p. 229.

ويذكر أدلر للتمثيل لذلك ، حلم فتاة فى السادسة والعشرين من عمرها أقبلت عليه تلتمس علاجاً لنوبات الغضب التى كانت تنتابها وللتفكير فى الانتحار ورغبات التشرد التى كانت تفد عليها . قالت : « رأيت كأننى زوجة رجل متوسط القامة أسمر اللون . وقلت له : إذا لم تساعدنى على الوصول إلى هدفى فلسوف ألجأ إلى أية وسيلة ، ولو كان ذلك رغم أنفك » . وتبين أدلر أن هدف المريضة اللاشعورى الذى انسرب إليها منذ طفولتها ، هو أن تحول نفسها رجلا. ومع أن ذلك الهدف لم يكن فى طفولتها أمراً لاشعورياً ، فلم يكن له عندئذ لديها من المعنى ما له عند الناس كافة ، ذلك لأن الطفل لا يستطيع أن يدرك القيمة السيكلوچية أو الاجتماعية لمثل تلك الأوهام . ومع هذا فقد ظهر ذلك الهدف فى إغراق الطفلة فى الشراسة وولعها البالغ بلبس ملابس الأولاد ، وولعها بتسلق الأشجار واتخاذ دور الرجل فى ألعاب الصغار وإعطاء الأدوار النسوية للأولاد . وتبينت الصغيرة بما كانت عليه من ذكاء ، تفاهة الوهم الذى كانت تسترشد به ، فغيرت فى شكل الوهم حتى صار مطالبة الجميع بتدليلها . والحصول على التدليل — كما هو معروف — لون من ألوان السيطرة . ثم أنسيت الفكرة الموجهة الأصلية ، حتى تستطيع مواصلة الاستمساك بها ، وبقيت مخبوءة فى نفسها تعمل فى توجيه سلوكها حتى استشعرت العلّة فأقبلت على أدلر تلتمس البرء عنده .

ويرى هو وأتباعه أن شيوع لفظ اللاشعور وابتذال استعماله يرجع إلى الدعاية التى وفق فيها أصحاب التحليل النفسى حتى جعلوا الحياة كلها عند الناس عقداً وانحرافات وأحلاماً ولا شعوراً مع ما فى هذا القول من مبالغة وإسراف وتعميم خاطئ .

ثم بدأ أدلر وأتباعه فى التمييز بين الشعور واللاشعور ، فرأوا أن الشعور ضرب من النشاط العقلى يسهل تفهمه إلى حدما ، ذلك أن الإنسان يستطيع أن يتفطن إلى كثير مما يجرى فى عقله ، غير أنه من المحقق المألوف أن

هذا التفطن الذى يسمى شعوراً ، ليس سوى جانب صغير من ضروب النشاط الكثر التى يقوم بها العقل الإنسانى . وأضاف أصحابنا إلى ذلك أنهم يؤمنون إيماناً عميقاً بأن القدرة على التفكير الشعورى تنمو وتنضج بنمو اللغة ونضجها ، ذلك لأن هناك علاقة وثيقة بين اللغة والتفكير الشعورى ، لأن هذا التفكير يتميز باتخاذه الطريقة الرمزية فى التعبير ومن ثم كان من العسير أن ندرك شعوراً دون رموز ، أى دون لغة وألفاظ .

ثم قالوا إنه ليس من الصواب أن نطلق لفظ اللاشعور عل كل ما يجرى فى العقل بعيداً عن نطاق الشعور ، لأن هذا الشعور لا يستطيع أن يمسك إلا فكرة أو عدداً قليلا من الأفكار ، بينا يقوم العقل بوظائف لا تدخل تحت حصر : منها أن كثيراً من العوامل التى تؤثر على أعضاء الحس تؤدى إلى أرجاع وألوان من النشاط تتبعها على منوال آلى ، دون أن يستدعى منا ذلك تفكيراً أو انتباهاً ؛ ومنها كثير من الأعمال العقلية والبدنية التى لا نصل إلى إحسان القيام بها إلا بعد دربة طويلة ، كنا نمعن التفكير الشعورى خلالها ونركز أثناءها على العمل قوى الملاحظة والانتباه التى هى قوى شعورية أصلا « حتى إذا ما طالت الدربة تكون فى المخ مركز لوحدة مركبة متناسقة تنحدر إلى ما تحت اللحاء »[1] فالسير مثلا يشمل عدداً لا يحصى من الحركات العضلية ليس من اللازم أن تنتبه إليها أو تقوم بضبطها ، لأنها حركات مترابطة تكون وحدة معينة . كذلك اللغة ومانعانى فى تعلمها من حفظ المفردات وإتقان اللفظ وحسن التعبير . وظاهر من هذا أنهم يقصدون : أنه ليس من الصواب إذن أن نطلق على تلك الأعمال صفة اللاشعورية لأنها تخرج عن نطاق الأعمال النفسية . ولا على هذه ، لأن ذلك يتعلق بمسألة الانتباه ، ووجود الأمر فى الشعور أو على هامشه . وهم يرون كذلك أنه ليس من

---

(١) Dreikurs : *Introduction to Individual Psychology* p. 66.
ونلفت النظر إلى ميل ذلك المؤلف إلى التفسير الفسيولوجى للتذكر والعادة وإلى خلطه بين المخ والعقل .

الصواب أن نطلق على أوجه النشاط الأخرى التى تجرى فى نفوسنا دون شعور منا صفة « اللاشعورية » ، وأن نتبع استعمال العامة الذين ابتذلوا اللفظ ابتذالا على قدو فهمهم لأقوال فرويد وأتباعه ، فصاروا يصطنعون لفظ « اللاشعور » لوصف أية عملية عقلية أو نفسية تغيب عنهم ولو إلى حين[١] مع أنهم قد يستطيعون إدراكها فى وقت آخر ، لو كان الواحد منهم شخصاً سوياً ، ومع أنها قد لا تخفى عليهم سوى وقت محدود فقط .

ثم هم ينقدون الرأى الذى يقول إن اللاشعور ينشأ فى الطفولة الأولى من الأوامر والمثل والأوضاع التى تفرضها الجماعة على الصغير : لأنهم يرون أن سلوك الصغير إن هو إلا قدرة على التمييز[٢] ، فهو يعرف ما يريد ويقدر المواقف التى قد تبلغ حداً كبيراً من التعقيد تقديراً صحيحاً ، هو يقوم بهذا كله فى سن مبكرة تنفى أقل احتمال بأنه يشعر بما يعمل — على حد فهمنا للفظ الشعور — ذلك لأنه لا يكون قد وصل فى هذه السن إلى التفكير الرمزى وهو لازم لإقامة الشعور كما أسلفنا . ومن ثم كان من البعيد عن الصواب ، أن نتحدث عن العمليات اللاشعورية فى تلك المرحلة من العمر ، لأن الشعور نفسه لا يكون قد تكوّن بعد إذ أننا بذلك نقيم مقابلة بين اللاشعور والشعور ، أى بين أمرين لم يوجد أحدهما وهو الشعور الذى لا يشرق إلا عند نمو الشخصية العارفة المفكرة .

ويخلصون بعد هذه الدراسة السلبية إلى دراسة اللاشعور ويربطون بينه وبين الضمير ، كما يخيل إلينا ، فيقولون ، كما عرضنا من قبل ، إن الجماعة الإنسانية تؤدى دوراً هاماً فى تكوين شخصية الصغير التى تتكامل تبعاً للمواقف المختلفة التى يحاول فيها أن يطابق بين نفسه وبين أوضاع المجتمع الذى يعيش فيه . وهكذا

---

(١) من الواضح أن هذا النقد الذى يوجهونه إلى فرويد خاطىء لأنه فرق بين اللاشعور وما قبل الشعور . وقال إن جانباً كبيراً من الأمور التى توجد فى ما قبل الشعور يمكن أن تنتقل منه إلى الشعور ثم تعود إليه بالطرق العادية .

(٢) Discrimination.

يبدأ نشوء الضمير ، إذ لا يتضمن الضمير أكثر أو أقل من القواعد والأصول التى يسكبها فى نفس الطفل من يقومون على تنشئته ، لكن الصغير فى أكثر الأحيان لا يؤمن فى قرارة نفسه ، بالأوضاع التى تعارف عليها الكبار ، وهو إلى اعتزازه بنفسه وعناد طبيعته لا يجرؤ على الكفر المكشوف بأوامرهم ونواهيهم وغالى نصائحهم ، لهذا يتخذ من السلوك ما يستطيع به أن يخدعهم كسباً لرعايتهم ، واجتذاباً للعطف منهم ، فكثير من أشكال النشاط التى تصدر عنه ليست سوى حيل يستخدمها فى جهاده ضد البيئة التى يعيش فيها . وهى حيل كثيراً ما تخفى على إدراك من يحيطون به من آباء ومربين ، فلا ينسبونها إلى أصولها الحقيقية بل يظنون أنها تكشف عن أخطاء يعيبونها عليه دون أن يقدموا له من العون ما يؤدى به إلى إصلاحها .

يعرف الصغار جميعاً ، حق المعرفة ، أصول القواعد المرعية ، ويدركون فى وضوح ، ما يرقبه الكبار منهم . غير أن أكثرهم لا يقبل تلك القواعد إلا قبولا شكلياً لأنهم يعرفون أن الثورة عليها مجلبة للأذى ، شديدة العسر ، كبيرة الخطر . فيستبدلون بالثورة المكشوفة عراكاً داخلياً ، يشجعه أهلوهم ويزيدون حدته فى نفوسهم ، راجين من ذلك ، أن يؤدى « ضبط النفس » إلى انتصار مبدأ الخير عندهم — ومع هذا فقلما يفلح ذلك الضرب من التربية ، لأن دوافع الحقد والثورة والجحود تبقى كامنة فى النفس على مر الأيام ، مهما اتخذت من مظاهر الرفق وحسن الطوية .

لا يتبدل ذلك الموقف الذى يتخذه المرء منذ الطفولة — طوال حياته — إلا تبدلا طفيفاً ، فيمثل الضمير أول الأمر رغبات الأهل ثم رغبات الجماعة ونظمها فيكون الضمير دليلا على إدراك المرء لمطالب الجماعة ، فإذا حسنت تربية المرء قبل ضميره تلك المطالب ، أما إذا استجاب للعوامل المناهضة لأوضاع المجتمع ، وترك زمام رغبته فى السيطرة والسطوة ، وضع نفسه فى مأزق حرج مع نفسه . ذلك لأن كل جزء من « ذاته » التى تمثل الأوضاع العامة والأخلاق المرعية ، تقف فى

وجه الميول الاجتماعية التى تجيش فى نفسه . فى هذا الوقت ، حين تفلت من المرء وحدانية الغاية التى كان يسعى نحوها ، وحين تلزمه المواقف انتقاء واحد من هدفين متنافرين ، يتخذ من السلوك ذلك الشكل الذى كان يجدى ضد أهله خلال الطفولة ، ذلك هو انتحال المعاذير .

كانت المعاذير أول الأمر تهدئ من غضب أوليائه وتلغى العقاب أو تخففه ، أما الآن وقد قطعت تربية الضمير شوطاً بعيداً وأصبح الفرد أكثر إيماناً وقبولا لعدالة القواعد التى لقنت له من قبل ، فقد أصبح لزاماً عليه أن يقدم المعاذير لنفسه وأن يضع الحساب عن سلوكه أمام ضميره هو . وأيسر السبل لذلك هو التخلص من تبعة ما يشيع فى نفسه من الرغبات « السيئة » بأن يكون تام الجهل بها لأن من أركان التبعة أن تكون عالماً بما يصدر عنك . . . هكذا يخلق اللاشعور : فهو يتضمن كل الرغبات والميول والانفعالات التى لا يود الإنسان أن « يسأل » عنها أو التى لا يسلم بوجودها فى نفسه تهرباً من تبعة وجودها .

ويؤكد أدلر أن اللاشعور لا يقتصر كما يظن فرويد على الانفعالات الجنسية المكبوتة ، بل يرى أن النفس تعمل على دفع إرادة القوة التى تصدر عن المثل الأعلى للشخصية إلى أعماق اللاشعور ، وإخفاء الأوهام اللازمة لحياة المرء إخفاء لا يمكن بدونه أن تكون لها منفعة أو جدوى ، حتى يستطيع أن يبقى على مثله الأعلى من الانحلال وأن يبقى على تناسق نشاطه وتكامل شخصيته .

« وإذا كان الناس قد أنكروا — فى مطلع التحليل النفسى — سيطرة الميول الجنسية على نفوسهم ، فإن إنكارهم لها اليوم أقل بكثير من إنكارهم لتبعة أفعالهم ، ولمسئوليتهم الكاملة عن توجيه سلوكهم ، وانتهاج السبيل الذى يتخذه كل منهم لنفسه فى الحياة ، فليس اللاشعور على أى وجه من الوجوه تلك القوة الجبارة التى يتحدث عنها فرويد وأشياعه ، إذ ليس من أمر فى الحياة — على كل حال — تام المعرفة أو تام الغموض . ولو أن الناس استعملوا بدلا من لفظ اللاشعور لفظ اللامعترف به لكانت المسألة أكثر بساطة ، ولذهب

عنها كثير من التعقيد والغموض الذى يخلعونه عليها » [١] .

نخرج من هذا إذن أن أدلر وأصحابه ، عند الحديث عن اللاشعور ، يلعبون باللفظ كثيراً فى حجتهم ، فيتهمون غيرهم بأنهم يدخلون فيه عمليات لا تدخل فيه . مع أن الأمر ليس كذلك ، فلم يقل أحد ، ولا فرويد على الأخص ، إن كل عملية لا نشعر بها شعوراً واضحاً ، تدخل فى اللاشعور ، كالذكر أو العادة أو معرفة اللغة ، ذلك لأن تلك العمليات ، كما يفهم السيكلوچيون كافة ، عمليات شعورية ، وهى إن غابت عن تفطن المرء ، فذلك أمر آخر يتعلق بالانتباه نفسه ؛ أى بوجود العملية فى الشعور : بؤرته أو هامشه . ويخيل إلينا أن أدلر وأصحابه يخلطون هم عندئذ بين الشعور وبين الانتباه .

ثم يقررون أيضاً أنه يجب التفرقة بين اللاشعورى وما ليس شعورياً ، ويقولون إنه لا ينبغى أن نطلق لفظ اللاشعورى على كل العمليات العقلية التى لا نشعر بها ، بل ينبغى أن نطلقه فقط على العمليات والدوافع التى لا نعترف بوجودها فى نفوسنا ، لأننا بذلك نتخلص من مسئوليتنا عن القيام بها وهم بذلك يلتقون مع فرويد التقاء لا شك فيه ، فسواء سميت تلك الدوافع أموراً لا شعورية أو أموراً لا معترفاً بها ، فهى تتميز بغيابها عن نطاق الشعور وبعدم قدرتنا على إدراكها أو الوصول إلى معرفة كنهها فى الظروف العادية .

وإذا كان أصحاب السيكلوچية الفردية يعيبون على فرويد ، أنه نسب صفة اللاشعورية إلى بعض العمليات العقلية التى قد تغيب عن الإنسان ولو إلى حين مع أنه قد يستطيع إدراكها بالطرق العادية إذا كان إنساناً سوياً ، فمن الواضح أن هذا النقد الذى يوجهونه إليه نقد خاطئ ، لأن فرويد فرق بين منطقتى اللاشعور وما قبل الشعور ، وقال إن أهم ما يميز هذا عن ذاك ، أن ما يوجد فى ما قبل الشعور يمكن أن ينتقل منه إلى الشعور ثم يعود إليه بالطرق العادية .

---

(١) Dreikurs : *Introduction to Individual Psychology*, p. 71

يبدو لنا من هذا كله أنه ليس من خلاف بين أدلر وفرويد فى هذه الناحية، إلا نقاش لفظى خلقه أدلر خلقاً ، مع أنه هو نفسه قد انزلق إلى أخطاء عجيبة عند عرضه رأيه ، ذلك أنه ينكر نشوء الشعور نفسه قبل نشوء اللغة ، ومن ثم اللاشعور كما يقول . ولسنا ندرى عندئذ كيف تقوم الحياة النفسية للطفل خالية من كليهما وعلى أى الأسس تنتظم العمليات العقلية عنده بل وجوه النشاط كلها إلا أن يكون أدلر قد آمن بالسلوكية ، دون أن يدرك ، يفسر على ضوئها نشاط الطفل فى ذلك الحين منكراً عليه حتى الشعور به .

كما يخيل إلينا أن كل الجدّة فى مذهب أدلر هى أنه : أجل نشوء اللاشعور إلى سن متأخرة ، لأنه قال بأنه ينشأ بتأثير العوامل الاجتماعية من ثواب وعقاب وقدوة ، ونظر فى الأمور ، ثم ما يسمو على ذلك من العوامل الإدراكية والثقافية التى تصل بالمرء إلى الشخصية الكاملة المتناسقة . هذا إلى أنه قصر سطوة اللاشعور فى الحياة النفسية على جانب من الناس فحسب ، ولم يقرر أهميته البالغة فى توجيه النشاط النفسى للناس جميعاً كما زعم فرويد من قبل . هذا إلى ترديده ، ما يقول به الفهم العام ، من أن اللاشعور لا يقتصر على الميول الجنسية التى تناهض أوضاع المجتمع وتقاليده ، بل يشمل كل الميول التى تبعثها فى نفس المرء رغبته إلى السيطرة وميله إلى القوة دون رعاية لحقوق غيره أو نظر إلى خيرهم .

الفصل الثانى

الأحلام

يطول بنا الحديث جداً لو أردنا أن نقدم لرأى أدلر فى الأحلام ، بجانب ولو يسير ، من الآراء التى سبقته ، فقد كان الإنسان على مر العصور ، دائم العجب لظاهرة الحلم ، فأعمل الناس التفكير وكثرت المؤلفات عنها ، ويكفى أن نقول إن فرويد قدم لنظريته فى الأحلام ، بلمحة تاريخية موجزة ، استغرقت من كتابه حوالى مائة صفحة ، وأن فى كتابه ثبتا للمراجع ، يستغرق حوالى ثلاثين صفحة .

ومع أن كتاب فرويد ، يعد فتحاً جليلا فى علم النفس ، بل توفيقاً هاماً فى تاريخ التفكير الإنسانى ، فإن أدلر يقول إن فرويد لم يكن أول من عنى بتأويل الأحلام ، كى يستعين بذلك على التعرف على شخصية الفرد . فقد قيل من قبل إنه يمكن معرفة خلق الشخص عن طريق أحلامه ، معرفة أكمل من معرفتنا له عن طريق أقواله وأفعاله [١] . غير أن أدلر يقول : إن ما فى هذا القول من سرف ، يتبين لنا إذا عرفنا أن الحياة الشعورية واللاشعورية ، وحدة متكاملة ، وأن الأحلام جانب من النشاط الإنسانى فى مجموعه ، لها من القدر فى حياة الفرد ما لنشاطه وتفكيره فى حالة الصحو ، مع أن أتباع فرويد ، يحاولون جاهدين على الدوام ، أن يعلقوا على الأحلام من الأهمية جانباً أكبر مما لها فى الواقع . ويحاولون أن يفسروا على ضوئها ، وعلى ضوء ما يصدر عن الفرد من أعمال

---

(١) ذكر أدلر ذلك القول (ص ١٠٧ من كتابه « فهم الطبيعة الإنسانية ») عن ليشتنبرج أحد معاصرى جوته . وأورد نصه (ص ١٠٧ فى كتابه « المزاج العصبى ») مختلفاً عن ذلك قليلا .

لاشعورية، سلوكه ونشاطه، بينا يحاول أدلر أن ينظر إليها على أسس سيكلوچيته ، التى تنظر إلى مختلف نواحى نشاط الفرد مجتمعة بعضها إلى بعض ، متكاملة ، يفسر جانب منها جانبها الآخر . ذلك لأنه ينبغى ، كما يقول ، ألا نفهم ظاهرة مفردة من ظاهرات الحياة النفسية إلا فى علاقاتها بالظاهرات الأخرى ، وألا نستمد من أحلام الفرد ، أحكاماً تتعلق بخلقه ، أو سبيله فى الحياة ، إلا إذا أيدنا ذلك بأوجه سلوكه الأخرى ، التى تؤيد التفسير الذى نلتمسه للرؤى التى تعرض له .

وقد أولع الناس بتفسير الأحلام منذ فجر التاريخ ، كما أن تاريخ الثقافة يبين لنا أن القوم كانوا فى العصور السالفة ، أكثر عناية بتأويل الرؤى منا فى هذا العصر ، حتى ليمكن أن يقال ، إن الفرد العادى منهم ، كان أكثر فهماً لها من مثيله اليوم ، ويكفى للتثبت من ذلك ، ذكر الدور الكبير الذى لعبته الرؤى فى حياة قدامى الأغارقة ، أو قيام شيشرون بتأليف كتاب عنها أو امتلاء التوراة بالرؤى التى ورد ذكرها فيه ... هذا إلى أن رؤى التوراة قد أولت فيه تأويلا يتميز بالفطنة والمهارة ، أو هى قد وردت فيه وروداً ، دون تفسير لها كأنه كان من المفروض أن يفهمها الكافة فهماً صحيحاً تواضعوا عليه ، ويكفى أن نذكر حلم يوسف : « إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إنى رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين * قال يا بنى لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا إن الشيطان للإنسان عدو مبين » (سورة يوسف ٤ و ٥) ، وكيف فهم إخوته تطلعه إلى السيطرة عليهم ، وبيتوا له ، حتى باعوه إلى عزيز مصر . هذا إلى أن فى أهازيج الشعوب الشمالية ، على بعد هذه الثقافة عن تلك ، مايفهم منه أن الأحلام كانت تؤخذ وسيلة للبينة والبرهان . وكان المصريون والأغارقة[1]

---

(١) قسم بعض مؤلفى اليونان الأحلام إلى نوعين : النوع الأول ما يرتد أصله إلى حياة المرء الحاضرة (أو الماضية) وهو لا يكشف شيئاً عن المستقبل . والنوع الثانى ما يمكن أن يكشف عن المستقبل . ومنه النبوءة المباشرة (Oraculum) التى تنزل على النائم فى نومه . =

يبممون شطر معابدهم ، يبتغون أن يروا فى ظلال رهبتها من الأحلام المقدسة ، ما يهدى خطاهم فى مقبل أيامهم . بل إن هنود أمريكا ، ما زالوا يلجأون إلى التطهر والصيام ، والاغتسال بالماء الحار ، التماساً للرؤى المقدسة التى تنير لهم السبيل ، وتحل لهم المعضلات . وأمر الأحلام عندنا فى الشرق ، قريب من ذلك بل أكثر شيوعاً وأثراً منه .

على أن ما يؤخذ على ذلك المنوال القديم من التأويل ، الذى ما زال أغلب الناس به مولعين ، هو التماس ما فى الحلم من قوى غيبية ، تخلع عليه من المعانى والتنبؤات ما يحل طلسم المستقبل ، ويكشف عن مقبل الوقائع والحادثات . . لكن أدلر يقول : إن ذلك كله لا يجد ما يؤيده من الناحية العلمية . ويذكر أنه رأى منذ مطلع اشتغاله بتفسير الأحلام ، أن النائم أقل توفيقاً فى التماس الحلول من المستيقظ ، كما رأى أن الأحلام لم تكن أكثر نجاحاً فى تفسير المستقبل من التفكير العادى ، بل هى أكثر تعقيداً ، ومثار لتعقيد الأمور . إذ أن الأمر كله لا يعدو أن القوم يحلمون ، لأنهم يلتمسون فى الحلم حلولا ، يسيرون على هديها فى نشاطهم المقبل ؛ ومن ثم كان من البين أن هذه الحلول لن تبلغ من التوفيق ما يبلغه التفكير العادى ، الذى يلم — إن ابتغى حلا صحيحاً للمشاكل — إلماماً شاملا بأطراف المعضلة التى تعرض له ، وبوقائع الحياة الملموسة وأوضاعها المتعارفة ، بدلا من الإسراف فى التعمية والرمز .

يذكر أدلر عن أحد مرضاه : أنه كان يزيغ عن كل عمل شريف يرتزق منه ، ولعاً بالمقامرة فى الأوراق المالية ، وأنه كان يقامر تبعاً لما يراه فى أحلامه ، مسرفاً فى ذلك يوماً بعد يوم ، مبرراً سلوكه بأن النحس كان يلاحقه كل مرة ، لايطيع فيها هاتف أحلامه ، مع أن من الواضح أنه لم يكن يحلم إلا بما كان يملأ

= والتنبؤ بأمر سوف يقع (Visio). ثم الحلم الرمزى الذى يتطلب إيضاحاً وتأويلا (Somnium) وقد شاع ذلك الرأى عصوراً طويلة ، آمن الناس خلالها ، بأن فى الأحلام من المعانى المخبوءة ما يكشف عن حجب المستقبل إذا استطاعوا لها تأويلا (فرويد : علم الأحلام ص ٣) .

ذهنه فى حالات الصحو وأنه إذا كانت الفرص قد واتته ردحاً من الزمن ، فقد أدى به الأمر طبعاً إلى إفلاس جحد فيه أحلامه ، وكفر بها كفراً لا رجعة فيه . ومن ذلك نرى أنه لم يكن فى الأمر من قبل معجزة ما ، لأن ما وفق إليه أول أمره وما نزل به آخره ، هو ما يلحق أمثاله فى مختلف نواحى الحياة ، سواء بسواء ، لأن الفرد إذا اشتد ولعه بأمر ما أخذ عليه جماع تفكيره وانحدر معه آناء الليل ، حتى ليمكن القول إن بعض الناس لا تلحق أذهانهم أو عيونهم سنة من النوم ، يتابعون التفكير فى مشاكلهم ، سيراً على الأقدام أو سبحاً فى عالم الكرى .

ومن أكثر الأحلام كشفاً عن المستقبل وأوسعها ذيوعاً فى عالم الأدب ، الحلم الذى سرده شيشرون عن الشاعر سيمونيدس :

قيل إن سيمونيدس وجد مرة جثة إنسان مجهول ، ملقاة فى عرض الطريق ، فعنى بتكفينها ، ومواراتها التراب فى حفل لائق . فحذره شبح ذلك الرجل ، بعد ذلك من سفرة فى البحر كان الشاعر يعتزم القيام بها منبئاً إياه بأن اليم سوف يبتلعه إن قام بها . فتخلف سيمونيدس عن الارتحال ، ولاقى جميع رفاقه حتفهم فى تلك الرحلة . وسمع الناس نبأ ذلك الحلم ، فكان له أثر عميق فى الناس جميعاً ، تناقلوه خلفاً عن سلف عصوراً طويلة وزادهم إيماناً بما فى الحلم من أمور تكشف عن حجب المستقبل . لكن أدلر يفسر تلك القصة بما يأتى :

إن السفن فى ذلك الحين كانت كثيرة التعرض لخطر الغرق ، ولهذا كان القوم قبل ركوبهم متن البحر يواصلون التفكير فيه ، ويشفقون مما سوف يتعرضون له من أهوال . وكثيراً ما كان يعرض مثل ذلك لهم فى أحلامهم ، فليس لحلم سيمونيدس من قيمة خاصة ؛ إلا أن الصدفة التى أدت إلى تحققه ، بلغت من الروعة حداً كبيراً بقى أثرها بالغاً فى عقول الناس زمناً طويلا فآمنوا بها تبعاً لخوف الإنسان الدائم من المجهول ورغبته فى تفسير ما لا يدرك بالقوى الغيبية والعلل المغلقة . ويقول أدلر إننا لو أردنا تأويل ذلك الحلم ، لأمكن أن نقول : إنه يحتمل أن صاحبنا الشاعر لم يكن صادق الرغبة فى القيام بتلك الرحلة خوفاً من

أهوال البحر وعناء الطريق ، وخوفاً من أخطاره ، فلما اقتربت ساعة الرحيل ، كان يعتصر ذهنه لالتماس سبب يبرر تردده وإشفاقه من الارتحال . فلم يكن منه إلا أن يطلب إلى صاحب الجثة التى واراها الثرى أن يعبر له عن عرفانه للجميل ، فدفعه ذهنه إلى الظهور فى نومه يحذره من القيام بتلك الرحلة ، ويحدثه عن النبوءة التى كان سيمونيدس يتشوق لتلقى مثلها ، كى يبرر تخلفه عن الرحيل دون أن يتهم بالقعود والجبن . . . ولو أن السفينة لم تغرق ، لما سمعنا نبأ رؤياه ، ولذهبت نسياً كما ذهب غيرها لأن العقل لا يولع إلا بما يبعثه على القلق والتطلع ولا يشبهه إلا الحديث عن الحكمة المخبوءة بين السماء والأرض ، تلك الحكمة التى تبدو لنا أكبر وأشد سطوة مما يدركه عقل أو يفهمه لسان .

« فإذا كان القوم قد آمنوا على مر العصور بالغموض الذى يلف الأحلام ، وسيطر على قلوبهم اليقين بما فيها من كشف عن حجب المستقبل لو استطاعوا لها تأويلا ، فليس ذلك فى صميمه ، سوى جانب من الحقيقة لا يتجاوز النصف فالحق أن الحلم جسر يصل بين المشكلة التى تعترض الحالم والغاية التى يتشوق إلى تحقيقها . لهذا كثيراً ما يصدق الحلم ، لأن الحالم يفيد من حلمه درجة ، تعينه على القيام بدوره فى حل المشكلة ، وتهيئ الطريق لصدق حلمه » (١) .

ويعترف أصحاب السيكلوچية الفردية ، بما كان لفرويد من فضل مقيم فى تفسير الأحلام (٢) ويحيون فيه الشجاعة الوافرة ، التى دفعت به إلى العمل على

---

(١) Adler : *The Scsence of Living* p. 158.

(٢) لم ينشر فرويد كتابه عن الأحلام ١٩٠٠ إلا بعد أن استقصى أكثر ما كتب عنها وبعد أن درس ألف حلم ، دراسة هيأت له — بعد ذلك — أن يضع رأيه فى تأويلها . ومع أنه من العسير حقاً أن نوجز رأيه ، إلا أننا سنحاول عرض مجمله فى هذه السطور القلائل : لا يوافق فرويد الرأى الفسيولوجى ، الذى ينفى أى معنى نفسى للحلم ويربط حصوله بمثيرات خارجية ، أو داخلية ، تؤثر على بعض أجهزة الجسد أو عليه كله ، فتؤدى إلى ظهور الحلم . ويقول إن كثيراً من الأحلام نشاط نفسى خالص ينبغى تفسيره تفسيراً خاصاً به .

ولهذا توفر فرويد على دراسة الأحلام عن طريق « التداعى الحر » فيز بين الشكل الظاهر للحلم ، وبين محتواه الكامن ، أى بين الحلم كما يظهر لنا ، وكما نحكى بعضه ، وبين الأفكار =

تأويلها تأويلا علمياً ، واعتبارها ظاهرة هامة من ظاهرات الحياة النفسية ، ينبغى التوفر على دراستها ، والعمل على تفهم طرائق نشاطها ، وأساليب بيانها ، ومع أن أدلر وأتباعه ، يقررون شاكرين أنهم أخذوا عن فرويد كثيراً من طرائق التأويل ، إلا أنهم يعيبون عليه ، أنه « أبعد الأحلام وتأويلها عن نطاق العلم »[1] . لأنه يقول بوجود هوة بين عمل العقل فى أثناء النهار وعمله فى أثناء الليل، أى أنه يقيم حاجزاً ، ويؤكد تناقضاً ، بين الشعور واللاشعور يؤدى إلى أن تخضع الأحلام لقواعد تناقض قواعد التفكير العادى ، بينا يناقض أدلر ذلك الضرب من التفرقة ، وينقدها نقداً حاداً ، عرضنا له من قبل ، عند الحديث عن اللاشعور ، مقرراً أن لا يناقض هناك بين النوم واليقظة ، أو بين أفكار

= المحبوة التى تؤدى إلى هذا الشكل الظاهر ، والتى نستطيع أن نصل إليها بتحليل تفاصيل الحلم ، بوساطة التداعى الحر . ويقول فرويد إن المحتوى الكامن ينتظم انتظاماً متناسقاً معقولا . ثم يتخذ مظهراً خارجياً ندركه ، لكن هذا المظهر الخارجى ، لا يحصل إلا بعد أن تتحول الأفكار الكامنة ، تحولا مجازياً رمزياً يخضع لبعض القوانين السيكلوجية ، التى يقوم على تنفيذها الرقيب ، الذى تحدثنا عنه من قبل .

والقوانين الأساسية التى يتبعها الرقيب فى تحويل الحلم هى :

(ا) التكثيف Condensation مثل إخراج صورة شخص من عدة أشخاص ، أو اسم من أسماء مختلفة .

(ب) النقل Displacement وهو إلصاق الأهمية الوجدانية لأمر ما بغيره من الأمور ، فى الحلم الظاهر .

(ج) الوضع المسرحى D.amatisation وذلك بإيضاح الماضى والمستقبل مع الحاضر فى فترة واحدة ، وباصطناع أفانين التمثيل والتصوير المختلفة ، فى إخراج القصة .

(د) الرمز Symbolism وهو تنكير الصور فى شكل يخفى إدراكه على الشعور هذا إلى بعض القوانين الثانوية ، مثل تفضيل الأمور التافهة واصطناع حادثات الطفولة.

والأمثلة التى توضح ذلك كثيرة كل الكثرة ، طريفة كل الطرافة ، كثير منها مقبول معقول لا نستطيع أن نورد هنا ولا بعضاً منها ، لأن الإيجاز يمسخه والطول يخرج بنا عن موضوعنا . وعلى كل يؤكد فرويد وأتباعه « أن الحلم لا يختلف عن أفكار الصحو ، فى أنه أكثر منها إهمالا ، وخطأ ونقصاً ، ونسياناً وبعداً عن المنطق فحسب ، بل فى أنه أمر ، يختلف من حيث الكيف اختلافاً تاماً عن تفكير الصحو حتى لا تمكن الموازنة بينهما ، على أى وجه من الوجوه » . (جونز : مفصل التحليل النفسى ص ٢٤٧) .

(١) Adler : *What Life Should Mean to You* p. 95.

الأحلام وأفكار الصحو ، إن كل منها إلا مراتب من نشاط عقلى واحد .

ومما يأخذونه أيضاً على فرويد ، رأيه فى تشبع الأحلام بالميول الجنسية تشبعاً يبترها عن ضروب النشاط اليومى ، وعن الأوضاع المألوفة للحياة ، ويقولون : إنه لو كان ذلك صحيحاً لكانت الأحلام تعبيراً ، لا عن الحياة النفسية فى مجموعها ، بل عن جانب منها فحسب . ومع أن أدلر يرى أن الأحلام حقاً وسيلة لالتماس الحلول السهلة لمشاكل الحياة وتخفف من الخشية المقيمة فى نفوس الأفراد من الدنيا ، حين تعوزهم الشجاعة لمواجهتها ، فهو يرى أن فرويد قد أسرف إسرافاً كبيراً فى المجاز والتشبيه [١] ، منعه عن إدراك انعكاس الشخصية كلها فى الأحلام ، ويقول أدلر إنه إذا كان فرويد ، قد وفق فى الوصول إلى كثير من القواعد الهامة لتأويل الأحلام ، إلا أن ما يعوز التحليل النفسى ، هو الركن الهام لإقامة علم النفس ، أى النظر إلى شخصية الفرد كلها متكاملة ، وتأمل الفرد وحدة ، وإن اختلفت أشكال النشاط التى تصدر عنه .

يرى فرويد : أن الغاية من الأحلام إشباع رغبات المرء ، لكن أدلر يرى : أن هذا القول لا يكفى لتفسير المسألة ، لأن الناس يحلمون ، ويندر منهم من يتذكر حلمه فى يقظته ، فأين الإشباع ، إذا أنسى القوم أنهم حصلوا عليه ! وما جدوى الإشباع فى حياة الحلم إذا تبعنا فرويد فى قوله بالانفصال بين حياة الحلم وحياة اليقظة ! فكأن ليس للأحلام من نفع أو غاية للمرء فى صحوه . فإذا

---

(١) أهم المآخذ – كما يرى أدلر – فى نظرية فرويد عن الرموز : تعميمه للرمز الواحد على مختلف الناس ، مهما تباينت ظروفهم أو بيئاتهم . حتى لكأن أدلر ، فى ذلك ، يردد قول النابلسى : « واعلم أن تربة كل بلد تخالف غيرها من البلاد لاختلاف الماء والهواء والمكان فلذلك يختلف تأويل كل طائفة من أهل الكفر والإسلام لاختلاف الطبائع والبلدان كالذى يرى فى بلاد الحر ثلجاً أو جليداً أو برداً فإنه يدل على الغلاء والقحط ثم إن رأى هذا الرائى فى بلد من بلاد البرد فإن ذلك لهم خصب وسعة ، والطين والوحل لأهل الهند مال ولغيرهم محنة وبلية ، كما أن الضرطة عندهم بشارة وسرور ولغيرهم كلام قبيح والسمك فى بعض البلاد عفونة وفى بعضها من واحد إلى أربعة تزويج ولليهود مصيبة ».النابلسى : تعطير الأنام فى تعبير المنام ص ٥ (١٠٩٦ هـ).

كان الفرد — فى الواقع — شخصية واحدة ، فى حالات صحوه ونومه ، فإنه ينبغى أن تكون الغاية من الأحلام ، غاية واحدة تتوافق مع مجرى شعوره فى كلا الحالين : وإذا صح رأى فرويد فى بعض الناس الذين يمكن أن نربط تحقيق رغباتهم فى الأحلام مع الميول التى توجه شخصية كل منهم ، كما هو الحال فى الأطفال المدللين وغيرهم من الكبار الذين لا يرقبون من الحياة إلا ما تتكرم به عليهم ، فإن تعميم ذلك الرأى على الناس جميعاً ، تعميم سريع ، إذ ليس التشوف إلى إشباع الرغبات ، سوى وجه من الوجوه الكثيرة ، للكفاح فى سبيل السيطرة والتفوق .

وإذا كنا نعمل على الكشف عن الغاية من الأحلام ، كان الأحرى بنا أن ننقب عن الغاية من نسيانها وصعوبة تأويلها وفهم معناها . ويقول أدلر إن تلك المسألة أخذت عليه جماع تفكيره ، منذ مطلع اشتغاله بتفسير الأحلام حتى وصل أخيراً إلى أن ليس فى الأحلام مناقضة للحياة العادية ، لأنه إذا كانت السيطرة غاية قوية ، تأخذ بزمام حياتنا بالنهار ، فهى تمسك بها أيضاً خلال الليل ، وليس الحلم سوى محاولة لحل مشاكل الحياة ، وتكملة للجهاد العنيف الذى نبذله للوصول إلى الغاية التى نتوق للوصول إليها من القوة والسمو . فليس الحلم إذن سوى نتاج لأسلوب المرء فى حياته ، يؤيد منهاجها ، ويمهد السبيل للمرء فيها . . . غير أنه إذا كان ذلك هو القصد من الأحلام ، فكيف يصح ذلك القول وغيابة النسيان تغرق الجانب الأكبر مما يعرض لنا من الأحلام ، فلا صوره تبقى ، ولا أقاصيصه تقر فى الذهن ، فإن بقى منها شىء لم يكن سوى نذر يسير ، يتعسر علينا فهمه ! يجيب على ذلك أدلر بقوله : إن الحلم وسيلة وأداة لاستثارة الأحاسيس والانفعالات ، والغاية منه الحصول على الحالة الوجدانية التى يخلفها وراءه . ذلك لأن الانفعالات التى يستشعرها المرء لا بد أن تتسق وأسلوبه فى الحياة ، لأن الفرق بين تفكير النوم وتفكير اليقظة ليس فاصلا باتًّا . فمع أن الحلم يبتر كثيراً من علاقات الفرد بالعالم الخارجى ،

و يباعد بينه و بين الحقيقة إلا أنه لا يسير فى ذلك أشواطاً كبيرة . فإذا ازدحمت أيامنا بالمشاكل ، لاحقنا ذلك فى النوم ؛ و يكفى أن نذكر ، كما يقول أدلر أننا نتحاشى السقوط فى أثناء النوم ، ونتخذ الوضع الذى نستشعر فيه الراحة والدعة ، حتى يتضح لنا أننا نستمسك ونحن نيام بعالم الواقع ، ولو أن النوم يخفف عنا كثيراً من قيوده ومن أوضاع الجماعة التى نعيش فيها .

ولو استطعنا أن نوفّق إلى حلول المشاكل التى تعرض لنا فى الحياة ، لتمتعنا بنوم هادئ عميق ، لا أحلام فيه ، لكنا قلما نوفق ، ومن ثم كان الحلم تكملة للجهد الذى نبذله فى حل المعضلات التى تعرض لنا ، ييسر تلك المشاكل و يزيد فيها تسهيلا وتيسيراً ، حتى يصل إلى حل ، يؤيد الأسلوب الذى اتخذه المرء فى حياته من قبل . وهو يصل إلى ذلك الحل ، على أى وجه من الوجوه ولو كان فيه ما يناقض « الفهم العام » . لأن الغاية من الحلم ، على رأى أدلر ، تأييد أسلوب الحياة رغم أوضاع الفهم العام وقيوده . وليس فى ذلك ما يناقض حياة الصحو ، فكثيراً ما يلجأ المرء إلى مثل ذلك لحل مشاكل حياته اليومية ؛ فلو أن أحداً من الناس، مثلا ، ملّ حياة الجهد للحصول على الرزق ، لتخيل فرص الكسب السريع فى الميسر ، وثار فى نفسه من الرغبة، ما يدفعه بعيداً عن طريق العيش القويم، إلى تلمس الربح والمال عن طريق المقامرة ، ولو كان فى ذلك ما ينافى الفهم العام الذى يهتدى به الناس أجمعين .

فالأحلام إذن عدو لدود للفهم العام « حتى أننا لنجد أن من الناس من لا يحلمون كثيراً ، بل من لا يحلمون أبداً ، أولئك هم الذين لا يسيرون وراء انفعالاتهم ومن ينهجون فى حياتهم منهجاً علمياً »(١) أما غيرهم ممن ينبذون جل

---

(١) Adler : *What life should mean to you*, p. 101.
(ص ١٠٧ من الكتاب السابق ، وص ١٦٧ من كتابه « علم العيش »). ويذكر أدلر نفسه أنه لم يحلم قطعاً منذ أدرك معنى عملية الحلم ، خلال الحرب الماضية .

المعضلات بالوسائل المألوفة المجدية ، فهم لا يستسيغون الفهم العام ، لأنه شكل من أشكال التضامن الاجتماعى ، بينما هم يتحرقون على الدوام ، إلى تحقيق رغباتهم فحسب دون أن يعنوا فى ذلك بالوقائع أو بأوضاع العالم أو المجتمع الذى يعيشون فيه . هكذا يسيطر أسلوب المرء فى حياته على أحلامه ، يلتمس فيها أداة تثير من الأحاسيس والانفعالات ، ما يهيئ للفرد منها ما يشد عمد حياته ، وما يبرر السلوك الذى يتخذه فيها .

ويمثل أدلر ذلك بحلم رجل فى الثامنة والعشرين من عمره ويقول إن حركة الحلم التى تتغير صعوداً وهبوطاً ، مثل منحنى الحرارة فى الحمى ، تبين جلياً ما يملأ حياته من تغيرات نفسية ، ويظهر الشعور بالقصور ، الذى يدفع إلى السعى نحو القوة والسيطرة ، فى جلاء ووضوح عندما يروى الرجل حلمه فيقول :

كنت على سفر مع جماعة من الناس ، وكان علينا ليلا أن نبرح السفينة لصغر حجمها كى نقضى ليلتنا بالمدينة ، فجاءنا ونحن نيام أن السفينة تغرق فنودى الركاب للعمل فى المضخات لإنقاذها من اليم . فتذكرت عند ذلك وجود أشياء ثمينة بين متاعى وعدوت إلى السفينة حيث كان الجمع يعملون فى المضخات لاهثين ، فسعيت للخلاص من ذلك العمل ، وأسرعت إلى الحجرة حيث وفقت لاستخلاص جعبتى من النافذة ورأيت فى نفس الوقت ، مبراة كنت أعتز بها ، فوضعتها فى الجعبة ثم وثبت مع أحد الصحاب ، بينا كانت الأمواج تبتلع السفينة رويداً رويداً وقفزنا إلى الشاطئ ، ولما كان المرسى كبير الارتفاع تجولنا بعيداً ، حتى وصلنا إلى أكمة شديدة الانحدار انزلقت منها بسرعة ، وخوفى شديد من الهلاك ، ولم أعد أرى رفيقى بعد أن تركنا السفينة . ثم وصلت أخيراً إلى القاع ، ساقطاً أمام أحد من أعرفهم ، وهو شاب غريب رأيته يعمل يوماً فى هدوء والقوم عن العمل مضربون ، وكان قد أحسن السلوك نحوى فوجه إلىّ التحية عاتباً كأنه كان يعلم أننى

خلفت الآخرين على السفينة ، ثم سألنى قائلا : ماذا تعمل هنا ؟ ثم حاولت الخلاص من تلك الهوة ، التى كانت تحيطها أكمات شديدة الانحدار ، يتدلى منها حبال لم أجرؤ على استخدامها لقلة متانتها ، وكنت أنزلق كلما كنت أحاول أن أرتفع عن الهوة ، غير أننى وجدت نفسى فجأة على القمة ، دون أن أدرك كيف بلغتها ويخيل إلى أننى لم أرد أن أحلم بذلك ، كما لو كنت تعمدت أن أتخطى ذلك سريعاً ، وعلى الحافة العليا للهوة كان هناك طريق محصن من ناحيتها بحاجز وكان الناس يمرون بى هناك ، فيلقون إلى التحية فى ودّ وعطف .

ويقرر أدلر أننا : إذا عدنا إلى حياة هذا الحالم ، وجدنا أن أول أمر نعرفه عنه هو : أن العلل لازمته ، حتى العام الخامس من عمره . وكثيراً ما انتابه المرض بعد ذلك . لهذا كان والداه يبذلان له العناية بذلا كبيراً ، ومنعه ضعف بدنه من الاتصال بغيره من الأطفال ، فإذا رغب القرب من الكبار ، عنفه أهله وأخبروه « أن الأطفال يشاهدون ، ولا تسمع لهم نأمة » ، فليس بينهم وبين الكبار من صلة . لذا أخفق منذ حداثته ، فى الاشتراك فى الحياة الاجتماعية ، وظل ملتصقاً بوالديه فحسب ، فتأخر لذلك عن لداته لعجزه عن التكافؤ معهم . ولا غرو إذا عرفنا أنهم كانوا يعدونه مغفلا فدماً ، يسخرون منه ، ولا يرضى أحد منهم بمصادقته .

هذا إلى أن أباه كان من رجال الجيش ، يتميز بالصلف والعنف ، أما والدته فكانت مولعة بالأمر والنهى ، دون أن تدرى كيف تقوم بذلك ، فكانت التربية التى تلقاها عنهما تتميز بالشدة والقسوة ، ولعب تثبيطهم له دوراً كبيراً فى زيادة شعوره بالقصور ، ومن الحوادث التى تركت فى ذاكرته وقراً عميقاً باقياً أن أرغمته أمه ، وهو فى الثالثة من عمره ، على الركوع على حب البسلة نصف ساعة بأكملها ، لا لجرم إلا أنه رفض أن يخرج لأداء مهمة كلفته إياها لخوفه من أحد الفرسان ، مع أنه كان قد أسرّ إليها

بفزعه منه قبل ذلك ، وكثيراً ما كان والداه يلهبان جلده بسوط متعدد الألسنة ، ويرغمانه كل مرة أن يسألهما العفو وأن يكرر ذكر الأسباب التى ضرب من أجلها ، وكان أبوه دائم القول : « ينبغى أن يعرف الطفل كيف أساء السلوك » ، وضرب مرة دون ذنب ، ولما لم يستطع أن يذكر سبب ضربه ، استمر ضربه حتى اعترف بخطأ لم يقترفه .

لهذا كان يتأجج فى نفسه الميل إلى العصيان ، والكفاح ضد أهله منذ نعومة أظفاره . واشتد شعوره بالقصور والذلة حتى أغلق عليه إدراك معنى السيطرة . وكانت حياته المدرسية — مثل حياته فى المنزل — سلسلة متصلة من الهزائم الكبيرة والصغيرة : كان يهزأ به الجميع حتى سن الثامنة عشرة ، بل المعلمون أنفسهم لم يكونوا يترفقون به فى الهزؤ والتأنيب . أرغمته كل تلك الظروف على السعى وراء العزلة فانزوى عن العالم واصطنع الصمت للبعد عن الناس ، وخاصة عن والديه ، وبذلك قطع الحلقة التى تربط المرء بالعالم الخارجى . ولما انقطع الحديث بينه وبين غيره اشتدت وحدته ، وأساء الناس فهمه ؛ متنافعوا عن الاتصال به وامتنعت كل المحاولات لإرجاعه إلى المجتمع . كما خابت كل جهوده لإقامة صلات الود بينه وبين غيره بعد ذلك .

ذلك هو مجرى حياته حتى الثامنة والعشرين ، وقد تغلب عليه الشعور بالقصور حتى دفع به إلى الإسراف فى الطموح وإلى رغبة شديدة فى السيطرة أفسدت علاقاته بالناس ، وكلما كان ينقص من كلامه كانت حياته النفسية تمتلئ ليلا ونهاراً بأحلام الغلبة وضروب النصر ، فليس الحلم الذى رويناه عنه من قبل ، إلا لوناً يتضح لنا منه النمط الذى سارت وتسير عليه حياته النفسية.